مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (6)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (6) 2014

المادية عند جورج سانتيانا

الدكتور محمد فرحة*

(تاريخ الإيداع 4 / 11 / 2014. قبل للنشر في 28 / 12 / 2014)

□ ملخّص □

تستدعي كتابات جورج سانتيانا الانتباه على نحو متكرر إلى المغزى و المعنى النهائي لدى المثال ــ الصورة ــ بالنسبة لتجربة الإنسانية من حيث إعطاء معنى وقيمة لنشاطاتنا. فإذا لم يكن الإنسان مهتماً بخواص الأشياء، أو التي يمكن أن تكون لها، فمن الصعب القول إنه يعيش على الإطلاق بأي معنى أخلاقي هام. إن احد أهم ما يميز فكر سانتيانا، هو إنه عبارة عن مزيج مؤلف من اتحاد الطبيعة مع الميتافيزيقا، و الإنسانية مع الأخلاق، والواقعية مع نظرية المعرفة. ولقد هيمنت هذه المذاهب على مجمل مؤلفاته فيما يعرف بالمرحلة المتوسطة من حياته، وخاصة في كتابه "حياة العقل". وفي ذلك كانت الروافع الرئيسة التي بنى بالقياس إليها نظريته الفلسفية – المادية والتي أراد لها أن تشكل بديلاً هاماً وقوياً أمام كل من المثالية المختصرة والمادية الضعيفة اللتان تعتبران ــ حسب رأيه ــ ثمرتان من ثمار القرن التاسع عشر.

سنحاول في هذا البحث دراسة النزعة المادية وتوضيحها ، وذلك من خلال نصوص سانتيانا الكثيرة في كتابه (حياة العقل). وسنحاول أيضاً أن نبين إن ماديته لم تكن من النوع القصيرة النظر التي تؤمن بأن الموجودات المادية هي الحقيقة الواقعية الوحيدة.

الكلمات المفتاحية: المادية، الماهية، الفينومينولوجيا المصاحبة، الخطاب.

*أستاذ مساعد – قسم الفلسفة– كلية الآداب و العلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (6)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (6) 2014

George Santyana's Materialism

Dr. Mohammad Farha*

(Received 4 / 11 / 2014. Accepted 28 / 12 / 2014)

□ ABSTRACT □

Santyana's writings call repeated attention to the ultimate significance which form possesses for experience in giving meaning and value to our activities. Unless a man is interested in the characters which things have or might have, he can hardly be said to live at all, in any morally significant sense. One strain of Santyana'sthought, consists of a combination of materialism in metaphysics, humanism in morals, and realistic methodology in the theory of knowledge. These doctrine receive dominate expression in the works of the middle period, especially in his book (The life of Reason). In this essay we will try to illustrate Santyana's materialism tendency, especially in the book (The life of Reason), and we will try to prove that his materialism was not of the myopic sort which believes that the material existence were the sole reality.

Key words: Materialism, Essence, Epiphenomena logy, Discourse.

* **Associate Professor, Philosophy Department, Art Faculty, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدمة: تستدعي كتابات جورج سانتيانا[1] الانتباه على نحو متكرر إلى المغزى و المعنى النهائي لدى المثال ــ الصورة ــ بالنسبة لتجربة الإنسانية من حيث إعطاء معنى وقيمة لنشاطاتنا. فإذا لم يكن الإنسان مهتماً بخواص الأشياء، أو التي يمكن أن تكون لها، فمن الصعب القول إنه يعيش على الإطلاق بأي معنى أخلاقي هام. إن أحد أهم ما يميز فكر سانتيانا، هو إنه عبارة عن مزيج مؤلف من اتحاد الطبيعة مع الميتافيزيقا و الإنسانية مع الأخلاق، و الواقعية مع نظرية المعرفة. و لقد هيمنت هذه المذاهب على مجمل مؤلفاته فيما يعرف بالمرحلة المتوسطة، وخاصة في كتابه "**حياة العقل**". من خلال هذه المذاهب المذكورة آنفاً ، شكل بديلاً هاماً وقوياً أمام كل من المثالية المختصرة و المادية اللتان تعتبران ثمرتان من ثمار القرن التاسع عشر.

سنحاول في هذا البحث دراسة و توضيح النزعة المادية وذلك من خلال ما انطوى عليه مؤلفه الفلسفي **(حياة العقل)** من رؤى وتصورات فلسفية – مادية عكست في مضامينها وبشكل منهجي واضح و صريح نظريته المادية الخاصة بالإنسان والعالم.

أهمية البحث وأهدافه:

تكمن أهمية هذا البحث في كونه محاولة لتبيان العناصر المادية في فلسفة سانتيانا و محاولة البرهان بأن ماديته كانت من نوع آخر، تلك التي لا تر بأن الموجودات المادية هي الحقيقة الواقعية الوحيدة. سنحاول أن نبين أيضاً بأن الموجودات المادية عند سانتيانا هي منتجات من قبل النشاط العقلي و مركبات مختلفة من أنواع خاصة.

منهجية البحث:

من الصعب جداً أن نحدد منهجاً معيناً للبحث و نلتزم به، و عليه سنعتمد في بحثنا هذا على مناهج عدة بحسب ما يقتضيه البحث ذاته. سنعتمد المنهج التحليلي الذي يساعدنا في تحليل نصوص و مفاهيم سانتيانا الفلسفية، وكذلك، سنستخدم المنهج المقارن لنبين مدى اختلافه و اتفاقه مع غيره من الفلاسفة، محاولين توضيح المفاهيم الفلسفية الجديدة التي اعتمدها في نصوصه.

---

[1] **جورج سانتيانا، (1863 ــ 1952م). كان فيلسوفًا وكاتبًا. ولد في إسبانيا وترعرع في الولايات المتحدة، وقضى نصف عمره بها. له فلسفة تثير حيرة الكثير من قرائه، وأنشأ نظرية عن الواقع تتمركز في التمييز بين الجوهر والوجود، ولقد عرّف سانتيانا الجوهر: بأنه الأفكار والمعاني والتصورات والاحتمالات، وعلى عكس ذلك فإن عالم الوجود يشمل الناس والأحداث والأشياء التي نتعامل معها في الحياة. يعتقد سانتيانا أن الجواهر لا توجد كلها فعليًا، ولكنه يعتقد أن كل الموجودات تحتوي على جواهر، ويرى أن دور الجواهر هو وصف وإضاءة الوجود. ويقول إنه يجب على الناس الإيمان بعالم مثالي، حيث تكون الروح الإنسانية خلاقة وحرة.**

مع أن الإسبانية كانت لغة سانتيانا الأم، إلا أنه كتب كامل إنتاجه باللغة الإنكليزية. وكان إنجازه الأهم في هذه الحقبة دراسة في علم الجمال بعنوان «حس الجمال» (1896) The Sense of Beautyتحدث فيها عن المُثل الزائلة transitory وتمييزها من الأخرى الدائمة permanent. وبيَّن في مؤلفه التالي «تفاسير في الشعر والدين» (1900) Interpretations of Poetry and Religionالروابط التي تجمع المَلَكات الجمالية والأخلاقية، وكان مَثَله في ذلك شعر روبرت براوننغ. ومع أنه كان يُعَدّ ملحداً، أو على الأقل غنوصياً، إلا أنه سعى لفهم مهمة الدين، فوجد الخطاب الديني دعوة لتعزيز الأخلاق ورموزاً تكشف عن تطلعات الإنسان وموقعه في الكون، كما كتب بكثير من التعاطف حول شخصية السيد المسيح حسبما وردت في الكتاب المقدس. أما نواة مؤلفه «حياة العقل» (1905–1906) The Life of Reason ، الذي كتبه في خمسة مجلدات، فقد كونها من دراسته لكتاب هيغل«فنومنولوجيا العقل» Phenomenology of Mind. فالعقل في رأيه مزيج من الدوافع impulseوالأفكارideation. كانت الفلسفة النظرية speculative philosophy محور فكر سانتيانا في حقبة ما بين الحربين العالميتين، وكان مؤلفه «الشكوكية والإيمان الفطري» (1923) Scepticism and Animal Faithإنجازاً كبيراً من حيث الدقة في الصنعة والعمق في التحليل، وتعبيراً عن فكر سانتيانا أكثر من أي مؤلَّف آخر، وبداية لمرحلة النضج في فلسفته، شرح فيه رؤيته حول التوصل إلى الإيمان عن طريق الحس. وقد طور هذه الأفكار في مؤلفه الأهم المُدوَّن في أربعة مجلدات «أنواع الوجود» (1928–1940) The Realms of Being وهو دراسة في الأنطولوجيا (علم الوجود) ويأخذ بيد قارئه، بلغة سهلة جذابة، عبر موضوعات كانت تربك قرّاء غيره من الفلاسفة. فالوجود عنده مؤلف من أربعة مكونات هي الماهية essence والمادة matter والروح spiritوالحقيقةtruth. وهو يحذو حذو أرسطوفي التركيز على الدور الرئيس للمادة (الطبيعة) وكونها سابقة على كل شيء، وعليها يقوم الإيمان الروحي أو الحسّي animal faith. ويركز أيضاً على كون المعرفة قائمة على فرضية وجود الروح؛ إذ إن من الممكن التعاليtranscend عن الأمور المادية والوصول إلى حالة تأملية في أي من الماهيات والتحرر من قيودها، وهذا ما يسميه «الحياة الروحية» spiritual life. وربما كانت هذه النظرية مركزية أيضاً لا في فلسفة سانتيانا فحسب، رأى سانتيانا أن الحقيقة مطلقة، إلا أن آفاق الإنسان المحدودة تشوهها، وقال بنسبية الخير والشر، وفقاً لطبيعة الأشخاص، وبكون الفلسفة فناً للتعبير عن الرؤى في القضايا الإنسانية الكبرى.

مفهوم المادة عند سانتيانا:

يخبرنا جورج سانتيانا بأنّ الحقيقة المادية أصبحت واضحة لديه في فترة مبكرة. و في تسمية نفسه ماديالّم يعنأنّه اعتقد أنّ الموجودات الواقعية المادية هي الحقيقة الواقعية الوحيدة. إذ لم تكن ماديته من النوع القصيرة النظر التي وجدت ممثليها، بالتحديد بعض الفلاسفة النمساويين في تسمية نفسه مادياً، لقد أكدّ اعتقاده أوّلاً بأنّ الوجود الواقعي،عالم مستقلّ عن العقل. و بالتالي، فماهيته لا تكمن في كونه شيئاً مفكراً فيه، ولا في التسليم به، يساعد في تنظيم و توقع التجربة الحسية. و ثانياً، في كونه الحقيقة الواقعية الوحيدة المؤثرة فقط في الوجود، هكذا حيث كلّ العلل هي علل طبيعية. و القول الرئيسي الأول وفقاً لسانتيانا لهذا المذهب المادي هو في المجلّد الخامس في كتاب **(حياة العقل)** فالفصول التي تناولت هذا الموضوع، هما فصلان، يعالج الفصل الأول، الكيفية التي يمكن للتفكير أن يكون عملياً، أما الفصل الثاني فيعالج الآلية. ففي الأول يقرر موقف الظاهرتية المصاحبة[2] و في الثاني، يتكلم عن الصفة الأخلاقية للمادية. لكن، وعلى الرغم من أنّ العديد من التأكيدات لتلك المادية التي وجدت في هذه المجلّدات.هناك أيضاً تباينات بخصوص حالات المادة المختلفة،إذ تبدو متناقضة بشكل واضح على سبيل المثال،إذ يبدوفي كثير من الأحيان مثالياً أو ربّما براغماتياً، أكثر من كونه مادياً، وهكذا فإنه يتكلم أحياناً، كما لو أنّ الموجودات المادية هي منتجات من قبل النشاط العقلي، مركبات متخيلة من أنواع خاصّة. وهي مركّبات متخيلة لصفات منفصلة متعددة التي تحدث مع بعضها البعض في تجربتنا.

طبقاً لسانتيانا في كتاب **(حياة العقل)**، هناك مرحلتان في تطور الفكر سببه الفوضى الأولية للتجربة. إذ يتعلّم العقل أوّلاً أن يعامل إحساسات متماثلة كأنّها إعادة ظهور للصفة نفسها، مثل هذه الصفات، سميت صفات **صلبة في الخطاب**، فالخطاب يعني بالنسبة لسانتيانا، تدفق الفكر، الذي ربّما يكون أو لا واقعيا، وبالنتيجة لهذا يكون قادراً على تركيب موضوعات خارج هذه الصفات التي أُعيدَ حدوثها باعتبار تلك التي تنزع أن تحدث معاً بوصفها مؤلفة للموضوع نفسه. إنّ موضوعات كهذه تسمّى **صفات صلبة في الوجود الواقعي**. وبعد ذلك، يمكن بالنسبة إلى العملية الأولى أن تحدث ثانية، وتعالج موضوعات متماثلة كحوادث متكررة للكلي نفسه، كما يفترض مسبقا كأنواع مختلفة من الحيوانات، وبذلك، يخلق نظام تصلبي أعلى في الخطاب. نظريا، فإن العملية يمكن أن تستمر و تستمر، و نظم التصلبات العليا يمكن ان تخلق دائماً في الوجود الواقعي و في الخطاب[3].

الصفات الصلبة في الخطاب، هي بشكل واضح أسلاف الماهيات– هي القاعدة الأساسية التي سننطلق منها إلى الماهيات، لكن تختلف بشكل جذري عنها في كونها تبدو و كأنّها مركّبة بطريقة ما من قبل العقل، انطلاقاً من الجزئيات المتماثلة، بينما المرحلة الأخيرة من تفكير سانتيانا، أكدّت،بأنّ الجزئيات متماثلة لأنّها تكون أمثلة في طبيعة محدّدة واضحة و يمكن أن تكون على ما هي عليه بشكل ماهوي، وبالتالي، امتلاك الجزئيات التي لا توجد أبداً. و يبدو في مقارنة مماثلة نجريها بين النظرة الذاتية لما قد قيل حول الأشياء المادية تحت عنوان الصفات الصلبة في الوجود الواقعي، و بين ميزة الاستقلال العقلي، التي خصصها في كتاباته الأخيرة، في كلتا الحالتين يوجد أيضاً تأكيدات لصفة أكثر واقعية، وفي حالات الأشياء المادية على الأقل، فإن هذه الإثباتات ستبدو أنّها تمثّل وجهة النظر الأكثر أساسية.

وغير واضح في كثير من الأحيان، في كتاب **(حياة العقل)**، فيما إذا كان سانتيانا متبعاً الأصل الفردي أو

---

[2] **تؤمن بان العمليات العقلية هي ظواهر مصاحبة للعمليات الدماغية.**

[3] **.See, The Philosophy of George Santayana, Northwestern University Press, 1940, p.125.**

الأصل النوعي لمظهر العقلانية، ربّما لأنّ مذهب الاختصار المفترض، حيث طبقاً لهذا المذهب يبني الطفل العالم المنظّم لتجربته البالغة على الخطوط نفسها، مثل ما فعل الجنس البشري في الماضي. و مع مثل هذا الافتراض، و الذي يجب أن يؤخذ على أنّه افتراض خطير جدّاً، يبدو من الصعب أن يكون وعياً إنساناً بدائياً بالغاً، أو أي كائن حي لا إنساني قريب جداً إلى ذلك الكائن البشري البالغ في مجتمع متحضّر قبل أن يتعلّم أن يتكلّم،على الأغلب قد يكون هناك بعض المماثلات المشتركة بين الاثنين إجمالاً.

و بشكل عام، عندما نجد سانتيانا، يبحث في القضايا المتعلّقة بالنظام الذي تتطور به تصوّرات ومفاهيم مختلفة، سيبدو له التطور الفردي أساساً في العقل، لكنّه ربّما قد يفترض بأنّ العقول البدائية تصل لمرحلة مبكرة لهذه العملية، وبتقدّم الحضارة يُقاد الفرد بأهليّة أكثر خلال كلّ مرحلة من مراحل ثقافته، وهذا يفترض أنّ ما يعنيه عندما يقول بأنّ الصفات الصلبة الأكثر أولية في الخطاب، يجب أن تأتي قبل أي من الصفات الصلبة في الوجود الواقعي، لأن الأخيرة هي مركّبات من الصفات الصلبة في الخطاب، فإنّ بناءها يجب أن يأتي بعدها. وخلال تطور هذا الفكر يقول بأنّ الصفات الحسيّة مثل (أحمر – دائري – قاسي) سوف لن تُسمّى مجرّدات من الأشياء الطبيعية، لذلك يجب أن نُوحدها قبل أن نضعها معاً لتكوين فكرة عن الأشياء المادية الفردية، يقول سانتيانا: "**الدائرية يجب أن تُسمّى تجريد من الموضوع الواقعي و ليكن الشمس مثلاً بينما الإحساسات البصرية التي يتكّون بها الإحساس بالدائرية– ربّما مشاعر الدوران والحركة المستديرّة– هي قبل أي ملاحظات شمسية، إنّها عنصر كافٍ بذاته في التجربة، و بتكرارها في سياقات عرضية مختلفة، أصبحت متحققة ومُسمّاة، لكي تتميز بفضل المواضيع الأكثر تركيباً و التي بإمكانها أن تغيّر وتحدد. إنّ فكرة الشمس هي منتجة أسبق بكثير، و الشمس الواقعية أبعد ما تكون عن كونها معطىً حقيقي من تجرّد الدائرية. إنّ تلك الدائرية هي تركيب، مثل الظلام مجرّداً، إنّه تصلب مكاني فيه يدخل التصلب المنطقي للدائرية كعامل قبلي و مستقل. فالدائرية يمكن أن يشعر بها في الظلام بمجرّد اقتراح الحركة،وهي تجربة متكاملة في ذاتها. و عندما يحدث أن تكون هذه التجربة المحققة مرتبطة بتجاور مع تجارب محققة أخرى للملاحظة كالحرارة، الضوء، الارتفاع، الاصفرار.وتلك الموضوعات المستقلّة المتعددة مخططة في المقدار نفسه من المكان واقعي، عندئذ يحدث التصلّب. وهذه الأفكار كونها مدركة في ذلك المكان، تصبح صفات الشيء**"[4].

حقيقةً، و من خلال ذلك يمكننا الاستنتاج أن قضية الجوهر تنطوي على جانبين فعلاً هنا، الأول يبدو جزءاً صحيحاً فلسفياً، والثاني يبدو جزءا مشكوك فيهجداً سيكولوجياً. **الجانب الفلسفي:** الموضوعات الفردية التي يمكن فقط إعادة تحديد هويتها من وقت لآخر، بفضل صفاتها الجزئية. هذه الفكرة تصل أوّلاً إلى كلّ الكليّات بفضل تجريد كلّ المعاني العامّة، و يجب أن تُستثنى من تجريدها من صفات و تفاصيل الحسّ العام مثل، (الكراسي، الأشجار، الأجسام السماوية). أما **النقطة المشكوك فيها سيكولوجياً**، هي القول أولاً أن أتعلّم أن أدرك فقط الكليات الأولية، مثل أشكال محددة والألوان والأقمشة وغير ذلك. وبعد ذلك أركب الأشياء الخاصّة منها أو الجزئية منها مثل هذا الشيء، وذاك الشيء، عندئذ في النهاية نصل إلى الكليّات العامّة مثل: الكرسي والشجرة. و يتعلم اعتبار المتشابهات المتعددة لهذا الشيء، كأمثلة جديدة لها. وهذا بالتأكيد ليس النظام الوحيد الممكن للتطور. ويبدو أنّه غير مرغوب فيه كنظام، فعلى سبيل المثال: يستطيع المرء أن يدرك هذه الكليات مثل: الكرسي، الشخص، الوجه،الكلب، وغير ذلك من القضايا الكليّة مثل: الأحمر،الدائري،القاسي، قبل أية أشياء خاصة على الإطلاق. و بالنتيجة، يمكن أن تميز الكراسي المفردة

[4]. Santayana. George, "Life of Reason", Vol. 1: Reason in common sense, New York: Scribner, 1933-1936, p. 168.

جزئياً بواسطة ما يحيط بها مكانياً بنوع الشيء المحيط بها، وجزئياً من خلال ملاحظة الاختلافات بالتفصيل، بذلك نكوّن معاني عامة جديدة، و الصفات الحسية بتجريدها من المعاني العامة المعتقدة. و حيث إنّ الوعي في السؤال يكون منفصلاً، فإنّ النظام الذي به تعلم الكلمات ليس حاسماً في هذه المسألة[5].

لقد قيل بما فيه الكفاية عن إعطاء فكرة لها معنى مختلف لنظرة سانتيانا لهذه الأشياء في كتاب **(حياة العقل)** عن تلك التي جاءت في كتاباته المتأخرة والتي كانت موضوعاًرئيساً للدراسة. علاوةً على ذلك، هناك نزعة في كتاب **(حياة العقل)** كما لو أنّ الأشياء المادية مركّبة بطريقة ما أو مكونة بواسطة العقل. ففي الفقرة المقتبسة أعلاه يقول سانتيانا: "**إنّها فكرة الشمس وليست الشمس ببساطة، الشمس التي هي ناتج أخير بدلاً مما هي بعض الصفات**"[6]، لكنّه يستمرّ حالاً ليقول:"**إنّ الشمس الواقعية، هي بناء مثالي تام وتصلّب مكاني**"[7]. هل هذا مجرّد لطافة في التعبير،أم هل فكّر سانتيانا حقيقةً، أن الأشياء المادية مبنية من قبل العقل، أكثر من كونها حقائق موضوعية مسلّم بها من قبله؟

كتب سانتيانا مدخلاً جديداً لكتاب **(حياة العقل)** في الطبعة 1922 في الفترة التي وصلت أنطولوجيته إلى صورتها النهائية. وهو يقترح هناك أنه في كتاب **(حياة العقل)** كان يتخذ وجهة النظر المتعالية، باعتباره كان يخطط تطور وطبيعة أفكار العقل عن الأشياء من وجهة النظر الخاصة المتطورة للعقل، وبأنّ هذا قد قاد إلى اتجاه مثالي لكنّ دون أن يدفعه ذلك للشك بأنّ العالم المادي الحقيقي ليس له تاريخ واقعي طويل يتقدّم على أي وعي به. ربّما كان أحد المرّات يمارس ما كان يسميه هسرل**بالإبوخية**. إلاّ أنّه فكرّ أنّ هذا شكّل جهلاً بحقائق الأشياء، ولم يعتبرها نموذجاً للفكر أكثر صحة من النموذج المألوف، كما يبدو أنّ هسرل قد فعل. وكانت النتيجة بأنّه غالباً ما تحدّث عن الطبيعة أو الشمس أو غير ذلك، عندما أصبح لدينا القدرة على القول إننا لدينا فكرة عن الطبيعة، أو فكرة عن الشمس، أو غير ذلك. و هو يوافق على أن هذا يصبح تشوشا خاصة عندما تكلم عن العقل بوصفه بقية أو فضلة متروكة عندما تكون الأشياء الأخرى قد حددت بمواقع في المكان، كما لو أنّ العقل ذاته لم يتكون حتّى شكّل تصوّره لنفسه. و لكن هل كان سانتيانا عام 1904م متحرّراً كلياً من المفاهيم المثالية و البراغماتية التي رفضها بوضوح في كتاباته الأخيرة، كما في عام 1922م حيث قال بأنّه قد كان كذلك بالفعل؟

وربّما يجب علينا أن نعتمد كلمته، لأنها، وبكلّ تأكيد هناك الكثير من الأدلة لدعمها، في كتاب **(حياة العقل)** أو في كتابات متقدمة عليه. ومع ذلك، فالمثالية التي تبدو بوضوح، أو بالأحرى الخط النفعي لبعض ما يعتقده في تلك المجلّدات، هو شيء الذي لم يكن بالإمكان طمسه من خلال بعض التعديلات اللفظية الطفيفة.

النقطة الحرجة في هذا الخصوص هي أنّ سانتيانا يصف أحيانا العالم المادي الذي نسلّم به على "**أنّه واقع وراء إحساساتنا**"[8]، ويقوم سانتيانا بشرحها، إنّه أفلاطوني في أساسه، ويقوم بربط ذلك مع تسمية الأشياء المادّية، أو العالم المادي، بحقائق واقعية متصوّرة على أساس مثالي،**(المواضيع الذهنية)، (عالماً من الخطاب العقلي) (بناء خيالي) (تلفيقات الفكر) (الشيء الذي يحتوي في استقلاله المثالي قوّة توكيد الفكر) (مصطلح مثالي)** .....وهكذا. هذه المصطلحات كلّها قد تمّ أخذها على أنّها قابلة للتطبيق على العالم المادي ومركّباته، في فصل

[5]See,Santayana. George,. "Life of Reason", Vol. 1: Reason in common sense,New York: Scribner, 1933-1936, pp. 169- 172.

[6]المصدر السابق نفسه، ص. 172.

[7]المصدر السابق نفسه، ص. 172

[8]The Philosophy of George Santayana, Northwestern University Press, 1940, p.128.

من كتاب **(حياة العقل، المجلد الأول: الحس العام)** بعنوان: "**اكتشاف الموضوعات الطبيعة**". في تلك المقاطع يقارن سانتيانا سلاسل الأحداث الزائلة التي تشكّل المادّة أو جوهر حياتنا الباطنية، والاعتقاد المستنتج بالكينونات الثابتة التي تندمج بها، والتي من المفترض تقديم إيضاح لها، وتسميتها طبقاً لأي منها، يشير الفلاسفة لأحدهم أو للآخر بمصطلح مادح هو **(الحقيقة)** ويرفضون الآخر على أنّه خيالي بطريقة ما.

يصرّ سانتيانا على خلاف ذلك، إذ علينا أن نعترف بكليهما على حقيقتهما بدلاً من الجدال حول أيّهما له الأحقيّة باعتباره أكثر واقعية. وعلى الرّغم من أنّه يقول أيضاً أنّه فيما لو كانت كلمة **(الحقيقة)** فإنّها ستكون مصانة لأحدهما، وسيكون من الأكثر ملائمة أن نطبّق عبارة الواقعية الأفلاطونية على الموضوعات المعقولة المستدّل عليها[9].

يقدّم سانتيانا تلك الموضوعات بأنها معقولة أكثر من كونها محسوسة، فهو يذهب إلى أنّ مثل هذه الموضوعات لا يمكنها من تلقاء نفسها أن تواجه مباشرة التجربة الآنية، وتقابل فقط في الحسّ، حيث وجودها الواقعي مثبت عقلياً. وما يواجه ذلك يقدّم اليقين الذي نملكه لاعتقادنا بالآخر، لكن اعتقادنا بالآخر هو اعتقاد بشيء ما وراء أي من توضيحاته الحسيّة.

وعلى الرّغم، من أنّ سانتيانا يتحدّث عن هذه الموضوعات الذهنية بوصفها مستنتجة، إلاّ أنّه من الواضح أنه، حتّى في هذه المرحلة يعتبر أنّه لاشيء في تجربتنا يمكن اعتباره كبرهان دقيق ولا حتّى احتمال لوجودها في الواقع. وهو سيعبر عن نفسه بوضوح أكثر عندما استعمل مصطلحه الأخير، و قال "**بأنّ تلك الموضوعات مفترضة**"[10]. على أية حال، وعلى وجه التحديد، فإن هذا الافتراض للموضوعات بالضبط، التي إن افترضت مرة، تفيد في توضيح التدفق التجريبي،وهو واحداً من الأنشطة التي تحدث بوساطة العقل. و التسليم فوراً بكينونات معطاة بوصفها ممثلة لموضوعات وراء ذاتها، أنّها الماهية الحقيقية للعقل التأملي.

وبهذا المعنى، عندئذ، فإن الأشياء المادية سيتمّ معرفتها من قِبل العقل وليس بواسطة الحسّ، وهذا ما دفع سانتيانا للقول إننا سنكون أفلاطونيين إذا اعتبرناها واقعية أكثر من كونها ظاهرات حسيّة. يقول: "**هذا النظام العقلي الأفلاطوني (وأكثر الذين يشككوا في الواقعية) يجد تعبيره أوّلاً في الحسّ العام، عندما تقيم تمايزاً بين إحساساتك ومسبباتها وتسخر من المثالي (كما يُسمّى هذا النوع من الشكوكية)، الذي يقول إنّ الطاولة والمقاعد توجد واقعياً في عقلك فقط،وأنت تعامل إبداع العقل بأكثر واقعية وعمق من لحظات الحياة التي يأتي العقل ليوضّح خبرتها العمياء**"[11].

وعلى الرّغم من ذلك، يوضّح نظرته للأشياء المادية بوصفها مواضيع ذهنية، وهكذا، فأنّ الاستخدام لا يزال غريباً، وخاصّة عندما يتمّ وضعه بجانب تمييزه الحاد الأخير بين العالم الأفلاطوني للماهية وتدفق الوجود الطبيعي المادي، و ما زال من التناقض أنّه يتمّ استخدام مصطلحات مثل **(الإبداع) (بناء خيالي)** التي تبدو على أنّها تحمل فكرة أنّ الأشياء المادية إبداعات مفيدة أكثر من كونها حقائق واقعية مستقلة.

وقد يعتقد أحدٌ ما أنّ هذا التفسير، وقد تمّ الكشف عنه من قِبل، هو الرؤية الغامضة لسانتيانا باقتراحه أنّ بالإمكان الاقتصار بكلمة "**واقعي**" على ما هو معطى بشكل مباشر، لكنّ دفاعه عن واقعية الأشياء المادية يبدو أنه لا يقوي كثيراً وجودها الواقعي المستقلّ كمقام أرفع، كما لو أنّها موضوعات للفكر أكثر من كونها شيئاً معطى بشكل

[9]. Ibid. p.129.
[10]Santayana. George. "Life of Reason", Vol. 1: Reason in common sense,New York: Scribner, 1933-1936, p. 173.
[11]Santayana. George. "Life of Reason", Vol. 1, 1933-1936, p. 80.

مباشر. إنّه يؤكد، في هذا السياق، أنّ بإمكان المرء فقط أن يصف أكثر الخبرات مباشرة بالرجوع إلى ما تفترضه، لذلك فغير المعروف، هو المعطى المباشر، كموجود واقعي في ذاته الخاصّة. وعلى الرّغم من أنّ لغته مبهمة بكلّ تأكيد ، فإنّه ليس بالإمكان إلا أن يتساءل المرء، فيما إذا لم يكن قد تردّد أحياناً في هذا الرأي؛ و مع ذلك سيبدو أن موقفه المعتبر فيما يتعلّق بالعالم المادي كان واقعياً.

وهناك،على أي حال، نقطة واحدة، بناء عليها، يبدو أن هناك فرقاً واقعياً واضحاً في وجهة النظر بين كتاباته الأولى وكتاباته الأخيرة. ففي كتاب **(حياة العقل)** تبدو النظرة وكأنّها تلك التي ترى أنّ المعطيات المباشرة هي تدفق من الإحساسات، وأن العالم المادي مفروض ليوضّح هذا التدفق المتدفق، وفي النظرة الأخيرة، يتقرر أن، الماهيات الأبدية هي المعطاة فقط، وليس هناك من سؤال عن وجود الوقائع الطبيعية المفروضة لتوضيح الوقائع العقلية، إذ العقلي ليس معطى أكثر من الطبيعي[12].

و القول إن الأشياء المادية مفروضة، لتوضيح الإحساسات شيء، وإنّ شرح مقصودنا لها شيء آخر، و قد مضى بعض الوقت في كتاب **(حياة العقل)** على النظرة الأخيرة. قيل إنّ طبيعة التصور تختلف، ولكنّها تفترض أنّه في الإدراك الحسيّ تكون إحساساتنا مترافقة بجو من الصور، ومن وجهات نظر مختلفة حول الموضوع المدرك، ومن الصفات التي يجب أن تكون حاضرة لحواس مختلفة مترافقة مع إحساس ذلك كله بوصفه مكوّناً بطريقة ما موضوعاً واحد، له، بكليته استجابات خاصة مناسبة، بينما في الفكر، يحدث الشيء نفسه من دون الإحساس، يقول سانتيانا: "**إنّ الواجب العملي لذلك التفسير العقلي لإحساسنا هو قسم أساسي من الرؤية، إن اليقين بالإحساسات النهائية،..... ولكن بما أن هذه الإحساسات هي في الذاكرة والتوقع، فهي متعددة ومتغيرة بشكل غير محدود، فأنت غير قادر على الإحاطة بها بشكل واضح قبل العقل. وبالفعل، فإنجاز كلّ الإمكانيات التي تستشعر غموضها ووقوعها في المستقبل هي مهمّة بالتأكيد، وتقع خارج حدود التخيّل مطلقاً، ولكن انطباعاتك الحاضرة و المعتمدة كما هي على حظك وموقفك المحتمل،وعلى ألف حادث ساذج بعيد كلّ البعد عن تمثّل ذلك كله على نحوٍ كافٍ، كان يجب أن يكون كافياً لمعرفتك الفعلية حول الموضوع الذي هو أمامك.ومن ثمّ فهذا الموضوع، عندئذ، في معرفتك ليس مطابقاً مع أي من الأحاسيس التي تكشفه، ولا حتّى كونه مشمولاً بكلّ هذه الإحساسات، عندما تضاف معاً. ومع ذلك، فأنه لا يحتوي على شيء قابل للتحديد إلاّ ما يمكن أن تكشفه تلك الإحساسات تصورياً.وبينما يتضح ذلك في مخيلتك، عندئذٍ، فإن هذا الموضوع،الحقيقة الواقعية، هو كائن متعدد ومحيّر. والمحصّلة الفورية المتبقية من كلّ الانطباعات الخاصة،التي،يتضمّنها الانطباع الحاضر، يجب تركها للحفاظ على الصلة في الخطاب. وبناءً عليه، وهبته قسماً كبيراً من طبيعتها الحالية. و مع هذا الموضوع الهجين، فإنّ الحسّ في موادّه، والمثالي في أساسه، يعني أن كلّ نظرة خاصّة هي مقارنة ومعترف بها، حيث الموضوع الذي يقدّمه لمراقب الخاصّ. هناك تطابقان في المقام الأوّل لإحساسات متعددة وعلاقات مشعور بها، التي ليس بإمكانها أن تحافظ على تميزها عن العقل،وتسقط معاً في مصطلح واحد في الخطاب، ممثلة بعلامة، أو كلمة، أو صورة حسيّة أكثر أوأقلّ كمالاً. في المقام الثاني، فالإدراك الحسي الجديد يشير إلى ذلك الكائن المثالي الذي يسمّى الآن توضيحاً له ونتيجة وتأثيراً**"[13].

والسؤال، إلى أيّ مدى يقدم هذا المركب من الصور، فكرة حقيقية عن الموضوع كما هو في الواقع؟! يجد سانتيانا جواباً براغماتياً أولياً في كتاب **(حياة العقل)**، لأنه قيل إنه، من حيث إنّ الفكر موجّه بتصور، فإنّه يؤثّر في

[12] The Philosophy of George Santayana, Northwestern University Press, 1940, p.131.

[13]See,Santayana. George. "Life of Reason", Vol. 1: Reason in common sense,New York: Scribner, 1933-1936, pp. 80-81.

مساعدتنا للوصول إلى غاياتنا، وسيتخلّى عنه فقط بقدر ما تعد بقيّة التصورات الأخرى بالنجاح كما تفعل حقّاً الغايات الأساسية. إن تقويماً براغماتياً كهذا للتصورات يحفظ الأنطولوجيا الأخيرة، بوصفه المعيار الأساسي للحقيقة الرمزيّة، ولكنّه يكمل، كما تفرض الحاجة بالتأكيد، بتحقق من وجود حقيقة واقعية.

أهداف سانتيانا من فلسفته المادية:

لقد حان الوقت للعودة إلى آراء سانتيانا الناضجة التي تجد تقريرها الأساسي في كتاب "**عالم المادة**" و لربّما يسأل أحدهم سانتيانا عن أنواع المهام التي يتصوّر نفسه اتخذها ليصبح ضامناً لهذا الكتاب، أنّه ليس مقصوداً أولاً كعمل في الإبيستمولوجيا، يتعلق بنموذج التبرير الذي يرتبط بعقائدنا العادية. و ما الذي يجب قوله فيما يتعلق بشأن ما يفترض أن يكون مبحوثا بكفاية في فصول "**الشكيّة والإيمان الروحي**"؟. و لا يمكن القول أيضاً أنّه مقصود تماماً كقطعة من تحليل تصويري في العرق العصري.

دون أدنى شك، إن الكتاب لا ينطلق لتحليل اللغة المستعملة في الحسّ العام أو في الأحكام العلمية المتعلّقة بالعالم الطبيعي. هل هدفه أنطولوجي إذاً؟! هل يشرح الطبيعة الحقيقية للأشياء المادية ؟! إن إثباتاً قاطعاً سيقترحه سانتيانا على أنّ هناك نظرية فلسفية خاصّة متمايزة عن المنهج العلمي والتجريبي، للوصول إلى الحقائق المتعلّقة بالطبيعة، ولكنه يرفض ذلك بثبات، فالتفكير الفلسفي سيبيّن لنا كيف يجب أن يكون في النهاية أي نظام من العقائد، و من وجهة نظر متعالية، معلقاً في الهواء، كآخر ملجأ نشعر واثقين ببساطة أن الأشياء هي هكذا وهكذا. دون أن نكون قادرين على تقديم أي تبرير أخير ليقيننا خلافاً لشخص يتوسّل بالقول،إنّ العالم الذي يضع نظريّاته للاختبار التجريبي يجب أن يعوّل في كلّ نقطة على إيمانه الفطري (الروحي).

يمكن أن نظنّ أنّ سانتيانا، كان يقدّم بعض التفسيرات لغاياته الخاصة، عندما يصف في الفصل الأول "**هدف الفلسفة الطبيعية**". لكن، وصفه لهذا المجال يوحده فعلياً مع العلم الطبيعي، أو على الأقل، مع محاولة لربط كلّ هذه العلوم في صورة واحدة للتطور ومصير العالم الطبيعي. إن وصف الحياة في العالم القديم، – كما رغب سانتيانا أن يفعل– جعله يملك إحساساً قويّاً لينظّم الاستمرارية التي عمل من خلالها تاليس و ديمقريطس و تولمن و نيوتن وآينشتاين، ويضعهم جميعاً تحت المصطلح القديم "الفلاسفة الطبيعيين"، و هو عنوان لم تطمح نفسه إليه. إنّ شرحه حول "**عالم المادة**" هو شرح أكثر من مجرّد المتعالي، فيما يتعلّق بالسؤال إلى أي مدى يمكننا أن نفترض، في التفكير، أن أي واحدة من هذه الماهيات التي نقوم بحدسها في الإدراك الحسي أو التفكير، متطابقة مع الماهيات المتجسدة بالفعل في الطبيعة؟!

يقول سانتيانا: "**بطرح هذا السؤال، لا أهتمّ بإعادة، أو تصحيح، أو تنبؤ بوصف ما يمكن أن يقدّمه رجال العلم للعالم. و أنا أقبل بسرور أية صورة للطبيعة مرُسومة بأمانة من قبلهم، مثلما أقبل بسرور أية صورة مرسومة من قِبل حواسي الخاصّة، فالظروف المختلفة، أو الملكات المختلفة،ستنتج بالتأكيد صوراً مختلفة. من سفر التكوين إلى طاليس، إلى بطليموس، إلى كوبرنيكوس إلى نيوتن، و إلى أنشتاين، تنوعت الصورة الطبيعية بلطف، و يمكن الآن أن تفتح رؤى طبيعية أخرى. هذه التنوعات والاختلافات تُظهر مرونة الفكر الإنساني.... هل هو مجرّد خيال ذلك الذي أصبح أكثر استعمالاً، و لكن ليس أقل تخيلاً؟ أم هل السبيل إلى المصير قد وضّح فعلاً، أم القوى التي تحكم المصير قد فهمت أفضل؟ و ضمن أية حدود يكون أي وصف للطبيعة،رائعاً أو علمياً، يحتفظ باعتماده**

على الإيمان الفطري، و صحته كمعرفة للواقع، و في أية نقطة يصبح مجرد تأمل و مجاز؟ ذلك هو السؤال الوحيد الذي سأحاول الإجابة عنه"[14].

وبالفعل، فإن وصف سانتيانا لمشروعه على أنّه متعال فقط هو مفهوم خاطئ، لأنّه لا يصف هنا ببساطة، أفكاراً إنسانية عن المادّة بشكل منفصل عن سؤال الوجود الخارجي. على عكس ذلك، يتساءل إلى أي مدى تكون الأفكار الإنسانية مفيدة، بوصفها لأهداف علميّة كثيرة، تكشف قضايا حول الطبيعة الحقيقية لواقعية مستقلّة.

يمكن أن نسأل كيف يفترض سانتيانا، أن يتجاوز أفكاراً بشريّة خارجة عن المادة، ليرى كيف تتصل بالمادّة كما هي في ذاتها. الإجابة من جانبه، وأنّه يعتبر هذا مستحيلاً، فيستنتج، أننا لا نستطيع أبداً التأمّل بإمساك (أو بمعرفة) الماهيّة الحقيقية للأشياء في التدفق الطبيعي، ويجب أن تتضمّن التفكير في المادّة في سياقات الماهيّات التي تقودنا إلى تخيّلها، والتي هي عادة الحقيقة الرمزية أو البراغماتية، بمقدار ما تشكلّ، أو تبدي، تعديلاً سيكولوجياً ملائماً للحقيقة.

قد يعترض شخص ما، على تفسير سانتيانا الخاصّ بالمعرفة، من حيث إنه لا يوجد سبب للادّعاء أننا نعرف بعض الماهيات المعطاة المحددة، بوصفها متحدّة مع الماهيات المتجسدة واقعياً في الأشياء الخارجية. سيجيب، إني اتخذتها، لأن هذا التطابق ليس شيئاً أشعر به بذلك الإلزام للاعتقاد الذي أشعر به بالوجود الواقعي لحقيقة مادية مرموز إليها بصورة مناسبة من جهة أفكاري، بل إنه يتعارض واقعياً مع العقائد المدعومة ببحث عملي، و سيكون هناك عدم توافق ملاحظ مع احتمالية سابقة، إذا كانت الماهيات المستثارة في حدس بحالات دماغي متطابقة مع تلك التي وصَفت أسبابها الطبيعية البعيدة.

ما زال، يصعب على سانتيانا، أن يقول برفض أي عنصر من الحقيقة الواقعية لأفكارنا عن المادّة، لأنه يميّز بعض الصفات المجردّة للمادّة، التي من دونها لن تكون مادّة. وفي إدراكنا لهذا من المفترض أن ندرك جزءاً ما من الحقيقة الواقعية. وهناك كثير من المحاولات في الكتاب، لشرح الصفات المجرّدة العليا، التي يمكن أن ننسبها للطبيعة كما هي واقعياً، مهما كانت مختلفة في صفاتها الخاصّة التي يمكن أن تكون لها من أيّ شيء يمكن أن نتخيّله.

الصفات الأساسية والثانوية للجوهر:

يضع سانتيانا قائمة من خمس صفات للجوهر (لا تحتاج لتمييزها عن المادة) إذ يصفها على أنّها أساسية:

1. الجوهر خارج الفكر الذي يفترضه.
2. للجوهر أجزاء، ويشكّل مكاناً طبيعياً.
3. أجزاء الجوهر بعضها خارج عن بعض.
4. يتدفق الجوهر تدفقاً طبيعياً، ويشكّل زماناً طبيعياً.
5. الجوهر ليس موزّعاً بصورة متساوية.
6. يشكل الجوهر عوالم مترابطةً بعضها مع البعض. [15]

أما بالنسبة للصفة الأولى، فقد رأى سانتيانا إنه يجب أن تُنسب إلى أي موجود واقعي نعتقد به، ويجب أن تزودنا بحسّ الحد الأدنى للكلمة التي من خلالها، أي يجب أن يكون وجوداً و جوهراً، و إن الإمكانية الأساسية لإعادة بقاء الصفات الأربع تغدو بالنسبة إلى سانتيانا معرفة بكونها متطلّبات أساسية في العالم الذي تكون فيه الذات المفكرة عاملاً فعالاً. ويخبرنا أنّ الجوهر مفترض في الفعل المعرفي. و ينبغي للفعل، أنّ يملك صفات ضرورية في حقله. إنّ

[14]Santayana, George. The Realms Of Being, Vol. 2: The Realm of Matter, New York Scribner, 1930, pp. 199-200.
[15]Santayana, George. The Realms Of Being, Vol. 2: The Realm of Matter, New York Scribner, 1930, p. 202.

السياق العام لفكر سانتيانا، واضح بما فيه الكفاية، و لكن بالمعنى الدقيق الذي به تكون هذه الصفات أساسيّة للجوهر، هو محيّر بعض الشيء، و الفكرة لا تبدو محددة بشكل واضح. فالجوهر الذي لا يكون حقلاً للفعل يستبعد بوصفه شيئاً مشكوكاً فيه، أكثر من كونه متناقضاً ذاتياً، أو شيء غير قابل للتصوّر. هذه النقطة يترتب عليها، من حيث إيمانه بجوهر موجود من أجل الفعل، أن يكون الاعتقاد بجوهر يكون الفعل ضمنه ممكناً، و لكنه ليس واضحاً كيف يتناسب هذا الدليل الغائي مع الفينومينولوجيا المصاحبة لسانتيانا.

ربّما يقول مرّة ثانية، سانتيانا، ، بما أنّ الاعتقاد، يفسر الدوافع الفعالة لكائن حيواني ما، فيجب أن يكون اعتقاده بعالم يُعطي مجالاً لهذه الدوافع، ولكن هذا لا يعني أخذ وجهة نظر أقلّ تعالياً مما يتبناه سانتيانا ظاهرياً هنا. قد يعني سانتيانا– إن الاعتقاد يتضمّن ترحيباً عظيماً بالماهيات المعطاة في عواطف الكائن– إن العالم الذي به نتقبلها فيه من حيث وصف له، يجب أن يكون عالماً تلائمه هذه العواطف[16]. وفي أية حالة، مهما يكون الدليل الصحيح، فإن سانتيانا يستبعد بالتأكيد الأفكار الميتافيزيقية المتعددة عن الجوهر، على الأسس التي تصوّرت الجوهر يتوقّف على أن يكون للفعل دفعة ممكنة، ويصل بهذه الطريقة إلى صفاته الأساسية.

لا يمكن أن يكون هناك فعل إن لم يكن هناك مقارنة بين الفاعل والأشياء التي في محيطه، وإن لم تكن هذه الأشياء في علاقات خارجيّة الواحدة بالنسبة للأخرى. كمثل التغيير الممكن من دون فناء لأي منهما. ربّما نلاحظ أنّ سانتيانا لا يضع الاستمراريّة بوصفها خاصيّة أساسية للجوهر فقط، لأنّه ينكر كونها متضمنة بالخواصّ الأخرى، على الأسس نفسها، تقريباً، حيث أنّ لحظة ما يمكن أن تكون فقط التالية للحظة أخرى، من خلال احتوائها الموضوعات المتحولة ذاتها. و المطلب الذي يملكه في ذهنه هو، على أي حال، ليس بقاء مطلقاً لأي شيء، بل الحاجة إلى موضوعات باقية بشكل نسبي لربط لحظة بلحظة. و فكرة القضيّة الرابعة، هي الإقرار بأن ليست كلّ أجزاء الجوهر يمكن أن تكون متماثلة بالضبط في طبيعتها. فضلاً عن ذلك، الأفكار لا يمكن أن تمثّل أي تغيير في حالتها الواحدة. يقول سانتيانا "**إنّه سيبطل كلّ فعل وفن إذا كانت كلّ الأجزاء متماثلة، وإذا لم أستطع مواجهة الحقيقة دون أن أدير ظهري تماماً على الحقيقة نفسها في الخلف... بشكل واضح ، فسوف يكون الفعل من دون موضوع في فضاء لامتناه أو في حيّز متجانس، وحتّى فكرة الفعل أو إمكانية الفعل سوف يختفيان إذا كنت أنا الفاعل، لا أملك أجزاء متمايزة، لذلك على الأقلّ ربّما أتقدّم إلى الأمام،بدلاً من الخلف، في ذلك الفراغ الكثيف**" [17].

هنا يميّز سانتيانا فكرته عن الجوهر عن الأفكار الميتافيزيقية من أمثال النموذج البارمنيدي. واعتقد، أنّه هذا الادعاء، بإن الفكرة متعلقة أيضاً بالادعاء المقدّم في التقليد الكانطي، حيث مقولة العدد، حتى للكثرة، غير قابلة للتطبيق على الحقيقة الخفية خلف الظاهرات، وعلى الرّغم من ذلك، أن الماهيات الحقيقية متمثّلة بالجوهر التي يمكن أن تكون مختفية عنا، يقول: " **أي شيء آخر يمكن أن تكون ماهيته الحقيقية، إنّها بالتأكيد مركّبة بشكل مؤقت، ومكانية و زمانية. إن تدفقها السري يتضمّن على الأقلّ كثيراً من المقارنات والتباينات التي تظهرها دورة الطبيعة على السطح، ما عدا المؤثّر النهائي للوجود لن يوجد، وأسباب التنوع لن تتعدد. لكن كيف سيكون ذلك الذي يضع هذه الماهية الظاهرة هنا، وليست هناك أنّها موجودة في الشرط الداخلي ذاته، في كلا المكانين، أو كيف سيكون ذلك الذي ينفجر الآن، فعالاً مثلما كان من قبل على حدّ سواء قبل ذلك**"[18].

إذا كانت القضية الأولى تركّز على كثرة الجوهر، فإن القضية الخامسة يُنظر إليها على أنّها اعتراف تقبله

[16]The Philosophy of George Santayana, Northwestern University Press, 1940, p.135.
[17]Santayana, George. The Realms Of Being, Vol. 2: The Realm of Matter, New York Scribner, 1930, p. 209.
[18]Santayana, George. The Realms Of Being, Vol. 2: The Realm of Matter, New York Scribner, 1930, p. 207.

الحكمة المتضمّنة في الفلسفات الواحدية. (نشير إلى سبينوزا في هذا السياق)،على أية حال، يرفض سانتيانا، بوضوح أنّ كلّ تلك الأشياء التي يجب أن تكون في علاقة ببعضها البعض،(تاركاً جانباً مجرّد التشابهات والاختلافات في الصفة)، ويصرّ فقط على أنّ المرء ليس بإمكانه أن يتحقق من الوجود الواقعي للأشياء التي لا تنتمي لنفسها ولغيرها في نظام واحد. يقول: " **حيث إنه لا يوجد داعٍ لافتراض أي جوهر باستثناء أن يكون فاعلاً في حقل الفعل، فكلّ جوهر متحقق يجب أن يوضع في الحقل نفسه الذي به عضوية المراقب تحتلّ مركزاً نسبياً**"[19].ويمكن على الرّغم، من أنّ المرء لا يستطيع أن يعتقد بالوجود الواقعي للأشياء، لا بشكل مباشر ولا غير مباشر، في علاقات حركيّة ذاتها، لكن بإمكان المرء، بكلّ تأكيد، الاعتراف بإمكانية الأشياء التي تنتمي إلى عوالم نسبيّة مختلفة، فيه الأحداث لن تكون قبل ولن تكون بعد، ولا حتّى في أي علاقات مكانيّة للأحداث في هذا العالم الواحد.

إنّ النظرة القائلة أنّ المرء يدرك الإمكانية المنطقية في الواقعية التي لا يستطيع احد أن يعتقد بها تصورياً يمكن أن تبدو غريبة، خصوصاً بالنسبة لأولئك الفلاسفة الذين يرون أنّ كلّ قضية لها معنى، هي التي قيمة صدقها يمكن من حيث المبدأ أن تعرف. لكن يبدو من الصعب إنكار أنّه قد تكون عوالم محتوياتها خارج كل علاقة لأحدها بالآخر، وأيضاً من الصعوبة، أن نرى كيف يمكن أن يعتقد بالوجود الواقعي لأشياء منفصلة تماماً عن كلّ اهتمام يتعلق عملياً بنا. والقول أنّ ماهية الاعتقاد تتضمّن بعض الأحاسيس بالأشياء بوصفها معتمدة عليها بالفعل لتؤثر علينا يبدو مقبولاً، سواء أكان سانتيانا يشرح على نحوٍ كافٍ لماذا هذه هي كذلك أم لا .

بقي لدي نقطتان تتعلقان بمعالجة سانتيانا لهذه الصفات الأساسية للجوهر، تتطلبان التعليق عليهما، هما:

1. لقد كان سانتيانا محقّاً بالتأكيد في أنه لا يمكن أن يكون فعل ما لم يثبت قابلية الأشياء على تغير علاقاتها مع بعضها عبر الزمان. وعلى أي حال، فأنّه يعلن بالنتيجة حتمية تؤسس الوجود الواقعي للعلاقات الخارجية بين الأشياء التي يمكن أن تتغيّر بدون تغيّر في ماهية المصطلحات. إنّه يفعل ذلك إذا كان الشيء الثابت لا يستطيع أن يغيّر ماهيته، حتّى في الحدّ الأدنى، إلاّ أنّ ذلك ليس موقف سانتيانا أبداً. إنّه صحيح بلا شك أنّه كفعل متصوّر عادة، ما يمكنني على سبيل المثال، إعادة ترتيب الأثاث في الغرفة بدون هذا الإحداث المنطقي في تغيّر في طبيعة القطع الفردية، لكن يبقى صحيحاً أن رفض العلاقات الخارجية لا يلغي كل التغيرات في العلاقات بين الأشياء.

2. إنّ مناقشة سانتيانا لهاتين النقطتين هي أقلّ وضوحاً مما كان يجب أن يكون، لأنّه غالباً يفشل في

التمييز بين العلاقات الخارجية بين الأشياء الثابتة، وبين تلك التي بين الوقائع أو مظاهر الأشياء. و في الحالتين، فإنّ العلاقات الخارجية هي تلك التي يمكن أن تتغيّر،و لكن فقط في حالة الأشياء، هل الأفضل أن نوضح هذه بوصفها إمكانية تغير في السابقة بدون تغيير في الأخيرة؟ ففي حالة الأشياء، يمكن أن يكون هناك تبادل بين العلاقات الخارجية والداخلية معاً، وفي حالة الوقائع، لا يمكن أن يكون هناك تغير في أي منهما. ولم يكن سانتيانا مبهماً في هذه النقطة.

ويصف سانتيانا الدعم الذي يقدّمه لهذه القضايا بأنّه بمعنى ما متعال، بقدر ما أنه يتحوّل إلى النظر للاعتبارات المتعلّقة بالطبيعة و مجال الفكر، بدلاً من الوضوح المستمد من الموضوع. ويبدو بوضوح أنّ استعماله لهذا المصطلح يستنبطه في نهاية المطاف من كانط، ولكن مهما يمكن أن تكون هناك من مماثلات لكانط، إلاّ أنّ موقفه المطلق مختلف تماماً. يعتقد سانتيانا أنّ هذه القضايا صحيحة في الواقع بنوع الطريقة الأكثر إطلاقاً. إنه ليس فقط أنها

[19] **المصدر السابق نفسه، ص .203.**

بطريقة ما تلبي متطلبات الذهن. و بالتأكيد فإن اعتقاده هذا مفتوح لشك مريب، ولكنه هكذا يؤكد، أنه حتى الفيلسوف الأكثر تعالياً أو مثالية، له بعض العقائد التي يتمسك بها بالروح الواقعية نفسها، والتي هي مفتوحة للاعتراض نفسه.

والأهمية الخاصّة التي يدّعيها سانتيانا بالنسبة إلى هذه القضايا الخمس، هي أنّها متضمّنة في أي إحساس لنا بحاجاتنا الحيوانية، وأن هذا هو الإحساس الذي يجبرنا على التخلي عن الشكيّة. ويبدو أن سانتيانا يقف على أرضيّة ثابتة هنا. وفي السياق الفلسفي ذاته، ربّما نلاحظ إن هذه الخصائص الخمس الأساسية للجوهر، قد زودّت بخمس **خصائص ثانوية** أخرى، هي:

- الجوهر، في تنوّع حقل الطبيّعة المتغيرة، يأخذ أحياناً صورة الحيوانات التي فيها مشاعر، وصور، وأفكار، و هذه الوقائع الذهنية غير مادية، وهي لا تقدم دفعاً للفعل، ولا يمارس تأثيراً فيزيائياً إحداهما على الأخرى.
- الوقائع الذهنية نفسها هي تعابير للجوهر، وفي حدوثها هي أجزاء من حادث طبيعي مطلق،الذي هو في جانبه الجوهري، ينتمي إلى ميدان الفعل، ولهذا فهي مهمة، ومتعلقة بالفعل كإشارات الوجود، خلقت وضبطت ببعض الجواهر تحتها.
- تحت تقطع الظاهرات، فإن الصور أو الصيغ التي ينساب الجوهر خلالها، مستمرة.
- مهما يمكن أن يمتد الفعل والإحصاء، فإن كميّة الجوهر تبقى متساوية خلالهما.
- كلّ صيغ أو صور الجوهر، على الرّغم أنها ليست متضمّنة في سابقاتها، هي محدّدة مسبقاً من خلالها في مكانها ونوعها، وهي متناسبة معها في الامتداد والكثافة. والحادث سيُعاد، إذا كانت مجموعة الحوادث التي تنتجه ستعود أبداً[20].

الخاتمة: في الختام نستطيع القول، إنه بالنسبة للسؤال العام عن الفكر، يمكننا القول إن موقف سانتيانا ليس موقف الخيالي الذي يفترض تخيلاً غنياً لموضوعات الفكر أو الكلام يجري أمامنا بثبات، ولا موقف مندفع عصري يعتبر أن محتويات الوعي هي ببساطة ملحقات غير مرغوبة للقدرات المتغيرة للتعامل مع الأشياء، التي هي متقدمة بطريقة ما. وطبقاً لسانتيانا، فكل ما يمكن أن يهم في النهاية هو الماهيات التي تأتي إلى الروح في كل العضويات، من لحظة للحظة، هكذا حيث، طالما أن الفكر يستخدمها هدفاً، بدلاً من مجرد أداة، فإنه يجب أن يتضمن نفسه أحياناً في حدس للماهيات، لغنى جمالي، أو عاطفي، أو صوري، ولكنه يعلم جيداً أن حالته الفعلية تسقط بعيداً بشكل عام تحت هذا المثالي. مهما يكن، سواء أحب أحد ما أن يضع هذه الأفكار بلغة الماهيات أم لا، فإني أشعر أن سانتيانا مصيب كثيراً في عرضه لوجهة نظره هذه علينا.

المصادر و المراجع:

1. Audi, Robert. The Cambridge Dictionary of Philosophy, Cambridge university press, 1995.

2. P.A. Schilpp, The Philosophy of George Santayana, Northwestern University Press, 1940.

3. Santayana, George. The Realms Of Being, Vol. 2: The Realm of Matter, New York Scribner, 1930**.**

4. Santayana. George. "Life of Reason", Vol. 1: Reason in common sense, New York: Scribner, 1933-1936.

5. The Genteel Tradition in American Philosophy, Published in the University of California Chronicle, Vol. 13,No.4, 1911.

[20]Santayana, George. The Realms Of Being, Vol. 2: The Realm of Matter, New York Scribner, 1930, pp. 203- 205.

References:

[1] Farha, Mohammad. *Objectivity from a Phenomenological Point of View*: An Analytical Study, Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (3) 2014.

[2] Farha, Mohammad. *The Phenomenological Concept of Husserl's Theory of Intentionality*, Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (31) No. (1) 2009.

[3] Farha, Mohammad. *The critique of Realism east and west Vaishesika and Husserl*, university of Delhi, Delhi, 2005.

[4] Farha, Mohammad. The Ontology: Origin, Development and Maturity, Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (32) No. (4) 2010.